مؤنس الرزّاز





ليلة عسل

عن الرجل الذي انتهت حياته قبل أن يموت




ليلة عسل
عن الرجل الذي انتهت حياته قبل أن يموت

ليلة عسل (عن الرجل الّذي انتهت حياته قبل أن يموت) / رواية عربيّة
مؤنس الرزاز / مؤلّف من الأردن
الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٠



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس :٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
لوحة الغلاف :
رافع الناصري / العراق
الصفّ الضوئي :
أزمنة للنشر والتوزيع ، عمّان

الإهـــداء

إلى نور

إلى يوسف الحسبان

سعادة الأستاذ جمال بك رجل أعمال ناجح ، ورب أسرة سعيدة ، وشخصية مرموقة في الأوساط التجارية والمالية والاقتصادية الأردنية .

ومع ذلك فقد بدأ يساوره ، في الفترة الاخيرة ،إحساس غريب بأنه تحول إلى زائدة دودية . يتمشى في حي التنابلة الهادئ ويتساءل :

ـ هل أرادت الأقدار أن تقتص منه حين جعلت حياته مستقرة وادعة ؟ ولكن ، كيف تتواطأ الأقدار عليه ، إذا كانت قد وفرت له حياة مستقرة ؟

إذن ، أين المشكلة بل قل : ما هي المشكلة؟

انطلق صوت خفي من أعماقه وقال :

ـ هذي هي المشكلة بالضبط ؛ أنّك تعيش حياة مستقرة بلا مشاكل . مَنْ ذا الذي زعم أن الحياة المستقرة حياة مرغوب فيها ؟ الحياة المستقرة ، يا عزيزي ، حياة رتيبة ، مملة ، ولها نكهة الروتين .

كان حي التنابلة في عمان الغربية هادئاً ، وشوارعه شبه مقفرة . قيل . . إنه سمي شارع التنابلة ، لأن تنابلة السلطان عبد الحميد الثلاثة ، لاذوا بعمّان حين انهارت الإمبراطورية العثمانية . وأقاموا هنا (وكان هذا المكان مقبرة أثرية) فوجدوا مشقة في طلب الرزق والسعي في مناكبها ، إذ اعتادوا على أن يوفر لهم السلطان المرحوم كل مطالبهم . بل ويوفر لهم ما يزيد على ما يحتاجون إليه .

بين ليلة وضحاها ، جعلهم «أتاتورك» يتحولون من رجال أرستقراطيين مترفين معزّزين مكرمين ، إلى عمال ينتمون إلى البروليتاريا الرثة .

لكن خادمهم الأمين مدحت بك ، حمل صندوقاً من الذهب قبل فرارهم . وعندما حملتهم الدروب وأفضت بهم الى طرقات، ثم أقلتهم طرقات وأوصلتهم إلى عمان ، ظل الخادم الأمين مدحت بك يعانق صندوق الذهب بحرص من يعانق حياة عشيقته الوحيدة وهكذا نزلوا في هذه المقبرة الأثرية وسرعان ما حولها صندوق ذهبهم إلى حارة راقية ، ثم حي فخم (نسبياً طبعاً) .

لكنّ المؤرخين يزعمون أنه لم يبق من ذرّيتهم سوى عدد محدود جداً من الرجال والنساء .

* * *

نعود إلى صاحبنا سعادة الأستاذ جمال بك ، الذي يتمشى كل مساء ساعتين في أرجاء الحي تريضاً بناء على نصيحة د. حران زريقات طبيب القلب ذائع الصيت .

كان الأستاذ جمال يفكر بصوت عال كعادته كلما مارس رياضة المشي هذه. قال لنفسه :

ـ لقد وضح الصبح لذي عينين ، فإن كان على عينيك ، يا جمال ، غمامة فارفعها . فكّر ملياً محاولاً حل مشكلة عدم وجود مشكلة في حياتك الهانئة .

لنبدأ بعرض الحال بما أنك مولع بالمنطق . أنت رجل عصامي . أقمت مشروعك ، من الصفر . فإذا هو خلال ربع قرن مؤسسة مزدهرة ناجحة جعلتك رجل أعمال يشار إليه بالبنان .

هز الأستاذ جمال منكبيه وفكر بصوت عال :

ـ طيب . . ماذا أستنتج من هذه المقدمة؟ لا شيء . لماذا ؟ لأن المقدمة لم تنته بعد ، فكيف تصل إلى النتيجة قبل أن تنتهي من تأمل المقّدمة . ؟

إذن ، أنت رجل أعمال لامع . ورب أسرة سعيدة . ابنك يرفع الرأس . تخرج في جامعة كولومبيا ـ بنيويورك حاملاً شهادتين : واحدة في التجارة ، والثانية في إدارة الأعمال . ثم عاد إلى عمان وألحقته بمؤسستك طبعاً . فانطلق صُعداً كالصاروخ . دون تدخل منك أو محاباة . وما حيلته إذا كان قد

ورث فطنتك الحادة ، وقدرتك الحازمة النادرة على اتخاذ القرارات الصعبة في أحلك الظروف ؟

شد ما أسعدك ذلك . حتى باتت كفاءته الخارقة موضوعك المفضل حين تتحدث إلى معارفك . نعم ، معارفك فأنت بلا أصدقاء . لك معارف لهم أول وليس لهم آخر ، لكنهم ليسوا أصدقاء حميمين . وهذا أحد أسباب نجاحك . ! .

وسرعان ما اكتشفت أنك بت عالة وعبئاً على ابنك الحبيب . فقد بادر بذكائه ونشاطه ، وجعل يأخذ بين الحين والآخر زمام المبادرة في قيادة المؤسسة . وحين عينته نائباً لك ، شعرت أن قيادة المؤسسة الإدارية لا تحتمل رأسين . رأسك ورأس ابنك . ودار بخلدك أن لا تقف عقبة في طريق نجاح ابنك الباهر . فسلمته زمام الأمر ، وتقاعدت مرتاح الضمير منشرح النفس .

لم تتنازل عن موقعك له وكأنك مغلوب على أمرك . لا ، أنت مولع به . إنه يذكرك بشبابك . ثم ، أما آن الأوان لتستريح وتلتقط أنفاسك ، وتتمتع بثمار جهدك الجبار ، أنت الذي انهمكت في مشروعك هذا ربع قرن ، وكنت تغدق عليه عشرين ساعة من طاقتك يومياً ، حتى كان يستنزفك تماماً .

هذا فيما يتعلق بابنك الذي حل محلك ، وواصل إدارة المشروع بذهن متوقد وأساليب حديثة متقدمة . ثم تزوج من امرأة تنتمي إلى عائلة راقية فغادر بيتك (القديم) واستقر في منزل خاص به مع زوجته .

وأنت لا تكاد تراه . فالمؤسسة تستهلك ثلاثة أرباع وقته ، والباقي تستهلكه زوجته . . وهذا حق من حقوقها .

حسن . ماذا عن فاطمة . . . المدام؟

المدام مناضلة مكافحة . ليست مجرد ربة بيت تقليدية إنها عضو في ثلاث جميعات خيرية وهي لا تحتل موقع عضو عادي في هذه الجمعيات معاذ الله ! للمدام شخصية قيادية . إنها عضو في الهيئة الإدارية لجمعيتين ورئيسة الجمعية الثالثة .

نعم ، امرأة قوية الشخصية ، فولاذية العزيمة مستقلة الإرادة والحضور . صحيح أنها تعتمد على ثروتك ، لكنها لا تعتمد عليك . ثم إن ثروتك هي ثروتها . ألا تشكلان فريقاً زوجياً منسجماً متناغماً ؟

النشاطات الخيرية ، واجتماعات الهيئات الإدارية ، ناهيك عن عقد المؤتمرات الشهرية والفصلية ، والحرص على إقامة شبكة علاقات شخصية وعامة مع نساء فاضلات ذائعات الصيت كريمات الأصل . . . يستهلك وقتها كله . فما أنْ تؤوب الى بيتك منهكة حتى ترقد على الأريكة لمشاهدة فيلم السهرة على شاشة التلفزيون .

هل أدركت لماذا بت تشعر أنك زائدة دودية؟ لا أحد يشعرك بأنه يرغب في الاتكاء عليك .

ولكن ماذا عن ابنتي ، حبيبتي التي يشرح مرآها صدري؟

نعم ، تبادلك حباً بحب . ولكنها ورثت عنك سمات عدم المصانعة ولا المحاباة .

تزوجت رجلاً متهافتاً لم ترض عنه لأنه أحمق يشتغل بالسياسة . يعني بوجع الرأس والمشاكل . لكنها تعلقت به بلا هوادة . ثم استخدمت مخزونها من كلمات معسولة ، وابتسامة مشرقة ، فانهار موقفك الرافض المتصلب . فوافقت ، وسألت عن ثمن موقف زوجها هذا .

ياله من ثمن مخز . ألم تعرض عليه موقع مدير فرع المؤسسة في العقبة؟ فاستنكر حزبه في اليوم التالي ، وطار مع ابنتك إلى هناك . . الهايف . وماذا ؟ قال لا وقت فائضاً لديهما لزيارتك اسبوعياً او شهرياً في عمان . وكأن العقبة في قارة أخرى نائية .

في البداية كانت تتصل هاتفياً كل ليلة لتقول لك : «تصبح على خير» . اعتدت اتصالاتها الليلية اليومية هذه . لم تعد تطيق صبراً على مواجهة النوم دون ان تسمع صوتها . ولكن ها هي ذي مشاغل حياتها تعزل صوتها عنك . لم تعد تتصل سوى صباح الجمعة ، والأدهى من ذلك ، أنها لم تنجب لك حفيداً حتى الآن . أنت بلا أحفاد يا «بيك» .

هل تدرك هذه الحقيقة المرة ؟

قال ماذا ؟ قال يريدون أن يكوّنوا أنفسهم أولاً . يا سلام . . ! وكأن حضرة البيك الابن بدأ حياته من أسفل درجة في السلم . أو

كأن حضرتها تزوجت موظفاً حكومياً . يكونون أنفسهم . عال . . والله . يا سلام . أي مهزلة ؟

ما علينا ، حاصله . . هذي هي المقدمة . . التي تقود إلى استنتاج منطقي بسيط : لقد انتهت قصة حياتك ، قبل أن تنتهي حياتك .

هذه هي المسألة .

يا للهول . انتهت قصة حياتي قبل أن تنتهي حياتي ، إذن أنا مجرد زائدة دودية لا تصلح إلا للاستئصال .

وهنا عصفت حالة كآبة ثقيلة رمادية بالسيد جمال . توقف عن المشي . وتلفت حوله ، لم ير سوى عجائز يقفن أمام بوابات بيوتهن ، يلكن الناس بألسنتهن ، يضحكن بلا أسنان ، ينتظرن الموت بنظرات ذابلة . ثم مد بصره إلى الجهة الأخرى من الشارع فرأى شيخاً مسناً محدودب الظهر يحمل خرطوم مياه ويسقي حديقته . كان يرتدي منامة ، وشعره أشعث . بدا وحيداً محدودب الظهر وثمة وحشة سوداوية في عينيه .

ثم ظهر بستاني على نحو مباغت ، فتمتم كلمات غاضبة ، وصادر خرطوم المياه من يد الرجل بحركة لا تخلو من عنف . كأنه يقول له : اذهب واسترح ، أنت ، في سريرك . هذا شغلي أنا .

استرد نظراته الكئيبة إلى عينيه الذاهلتين ، ثم أطلقها نحو

الأفق . بدا له الفضاء رمادياً محدودب الظهر بليداً كمستنقع لا يُحرك ولا يتحرك .

لا فائدة ترجى من الشعور برثاء النفس . لا ، أنا رجل لم يعرف الاستسلام أبداً في معارك حياته . ولم أستسلم للقنوط ، ولم أستسلم . . ولكن معارك حياتك انتهت يا أستاذ جمال . استقرار حياتك تجل من تجليات الرتابة . والرتابة هي الضجر في حالة انتظار حافلة الخواء . والخواء حافلة تمضي في اتجاه واحد فقط ، نحو محطة واحدة فقط : إنها المحطة الأخيرة .

ولكنني مازلت في الخمسين من عمري .

طيب . ومـا المشكلة في ذلك : منحت ، وأسست ، ونجحت ، وانتصرت ، وكللت حياتك بالنجاح ، وأدخلت السعادة إلى قلوب افراد أسرتك ومعارفك .

أصحاب الحظ المبتسم ، تنتهي قصة حياتهم مع نهاية حياتهم الحافر على الحافر . تصل القصة إلى خاتمتها ، مع وصول صاحبها إلى قبره .

هذا ما يسمى بالنهايات السعيدة للقصص . أما أنت فقد بلغت قصة حياتك نهايتها قبل أن تتهيأ للاحتضار .

لكن ، هذه ليست نهاية العالم والحياة . بوسعك أن تزجي ضجرك بلعب طاولة الزهر مع ثلة من معارفك . وبوسعك ، إن شئت ، أن تختار هواية من شأنها تبديد ضجر انتظار الموت . كأن

تسافر وتروح عن نفسك بين الحين والآخر . تستجم ، تنزل في فنادق فخمة ذات مسابح . تزور باريس ، تتمشى في حديقة هايد بارك في لندن حيث العجائز يتريضن جرياً في عز البرد . والشيوخ المسنون ذوو الظهور المحدودبة يقودون الدراجات بسراويل قصيرة . بإمكانك أن تسافر إلى بلد ما وتختار خليلة تروق لذوقك . هذه مثلاً علاقة تدخل في باب المغامرة . تشتري شقة صغيرة لها ، وتتردّد على بلدها كلما شعرت بالوحشة . تتسلى معك ، فلا تشعر بثقل الزمن وهو يمر على الزائدة الدودية مرور حجر الرحى الطاحن الساحق .

واذا أردت القيام بمشروع جديد ، فلا بأس من البحث عن هواية جديدة تشغلك : جمع الطوابع مثلاً . زيارة الأماكن الأثرية . التقاط صور فوتوغرافية فنية .

اجتاحه إعصار من الرعب . فكر بصوت مرتفع قوي حتى لا ينبئ صوته عن الفزع الذي ينتابه :

ـ هل اختزلت درب عمري الطويل بسرعة خارقة ؟ ألم يبق لي سوى البحث عن وسائل مفتعلة لأكش الخواء والضجر ، كما يكش المرء ذبابة تحوم حول رأسه ، فتبتعد قليلاً ، ثم تعود لتحوم وتطن ، وكأنها نذرت لإزعاجه ، والشماتة به ، وتحويله الى أضحوكة . لا ، لا ، لا ، ما زلت مقاتلاً شرساً . محارباً لا يستسلم أبداً . لكن . أين هي المعركة ، وما هو هدف الحرب وما غايتها ؟

تملكه اليأس فعاد أدراجه بخطوات ثقيلة ينتزعها من الأرض انتزاعاً . سيعود إلى بيت خاو موحش . زوجته ترعى نشاطاً خيرياً ما ، والخادمة السيرلانكية على جدار الحديقة تتضاحك مع خادمة الجيران .

ثم الصمت الرهيب الذي يفوح منه رائحة الموت المبكر . هام على وجهه لا يلوي على شيء ، ثم توقف ومد بصره إلى الأفق : خريف كامد مبكر سبق أوانه . ربيع سابق .

أنت رجل خريفي سابق . كل ما فيك سابق :

رجل أعمال ناجح سابق . فارس ماكر يراوغ منافسيه ويكيد لهم . . فارس سابق . عشيق ، عشقت امرأة وتزوجتها ، وها أنت قد آخيتها منذ فترة مما يعني أنك عاشق سابق . مشروعك بات بين يدي ابنك . إذن ، أنت صاحب مشروع سابق . أنت سابق والمشروع سابق . أنت ماض بلا فعل ، أو فعل ماض إذا كانت المكابرة تخفف عنك وطء الكآبة الخريفية ذات الظهر المحدودب والأسنان الصناعية . يدنو من بيته الموحش فيضاعف كربه هذا السكون الذي يخادعه فينتحل هيئة السكينة .

* * *

نعم . لا بد أن أفتتح قصة حياة جديدة . وما الغريب العجيب في ذلك؟ ألا يفلس أثرياء ، فيعمدون من فورهم إلى إعادة بناء إمبراطورية ثانية على أنقاض الأولى؟

لا . . لن أموت على فراشي كما يموت البعير . ثمة حيز طويل عريض لبداية جديدة . قصة أخرى تلي القصة الاولى التي انتهت قبل أن ينتهي عمري . لن أتقاعد . .

(ماذا عن مشروع جديد ، زوجة جديدة!)

ومالها «لارا» ؟ امرأة جذابة واعدة . مناجم من الحيوية . كنز يضج بالحركة . ولارا ابنة عائلة عريقة أرستقراطية ، لكن الزمان الغادر انقلب على والدها ، فأفلس مشروعه وانهارت مؤسسته ، فمات غيظاً وكمداً .

وهكذا بدأ جمال بيك يعد العدة لافتتاح قصة حياة ثانية ، مع زوجة جديدة . زوجة تنطبق عليها مقاييسه ومواصفاته :

فتاة ما زالت في أحد الصفوف الثانوية . أو ما يسمونه الآن بالصف العاشر أو الحادي عشر أو الثاني عشر .

لماذا امرأة صغيرة ؟

لأنه يريد زوجة بلا ماض . يا لطيف من نساء اليوم اللواتي ينهبن الحياة نهباً ، لا ، فتاة في الصف الثاني عشر ، بلا ماض .

لماذا بلا ماض ؟

لأن حاضر السيد جمال سيشكل ماضيها . يا للمتعة . أن تصوغ لإنسان آخر ماضيه ، ناهيك عن حاضره ومستقبله .

نعم . طبعاً . ستحتج أمها . ستقول إنها مجرد طفلة . وإنه بمثابة أبيها . ستباغت لارا نفسها ، وتذرف الدموع ، وتحبس

نفسها في غرفتها ، وتضرب عن الطعام .

هذه خسائر محسوبة ، وطبيعية أيضاً . لكن العقل ، في النهاية ، أرجح من العاطفة والخيال والأحلام الفارغة .

فالسيد جمال ما زال قوياً . وهو رجل متطور يتابع مستجدات العصر وينفتح عليها ويتقبلها ، بل ويرحب بها . حتى أن زوج ابنته محافظ في بعض المواقف أكثر منه . وهو متزمت تجاه بعض القضايا التي يراها السيد جمال من حقائق العصر ، وبالتالي لا بد من التعامل معها بعقل مستنير .

خذ موقفه من السباحة مثلاً . زوج ابنته الأحمق الرخيص متعصب ولا يسمح لها بالسباحة أمام الناس . أما هو ، السيد جمال ، الذي يكبر زوج ابنته بعقدين من الزمان ، فيرى أن حق المرأة في السباحة في بلد بعيد ، على شاطئ أجنبي ، لا لبس فيه وهو إذ يتفهم موقف زوج ابنته المتزمت من سباحتها في بحر العقبة حيث لابد من وجود أصدقاء أو معارف ، فانه يستنكر أن يمتد تزمته ليشمل كل بحار الدنيا وشواطئها . مَنْ ذا الذي يرى الأجزاء العارية من جسدها ، إذا كانت تتشمس على شواطئ بحر قزوين مثلاً ؟ لكن صهره يعيش في الماضي . في العهد العثماني . أما هو فمواكب لتطورات العصر منفتح على المتغيرات .

أما مسألة «القدرة الجسدية» فهي لم تذو تماماً . فاذا أضفنا الى هذه الحقيقة المعطيات الجديدة التي توصلت إليها عبقرية الإنسان ،

من حبوب الفياغرا وما شاكل ذلك ، فإن هذه القضية لن تكون شائكة على الإطلاق .

لا ، لا ، لا . . . رغم كل سلبيات حالته ، فإيجابياتها أكثر . وفي نهاية المطاف ، سوف توافق لارا وأمها . بل ستضحكان في دخيلتهما .

* * *

وبدأت المفاوضات في أجواء مكتومة محفوفة بإجراءات سرية للغاية . كان مصراً على التكتم وكأنه يعد مؤامرة لاغتيال شخصية مرموقة .

الاتصالات سرية . المتواسطون . . الاطراف التي تلعب لصالحه تتحرك تحرك فرقة من الفدائيين تعد كميناً للعدو . حتى الأنفاس محبوسة .

وظلت الوفود السرية ، تتآمر في الخفاء ، والمفاوضات تتعرض للمد والجزر . إلى أن ملأ حسن الظن بجمال بيك وشهامته نفس أم لارا وبدا في عيني لارا ، زوجاً مقبولاً !

وفي نهاية المفاوضات المضنية الشاقة اتفقت جميع الأطراف على إبقاء الأمر طي الكتمان ، فيما يتعلق بزوجته الأولى وابنه وابنته والناس . على أن يذاع على الملأ خلال ثلاثة أشهر ، وفي يوم يختاره جمال بيك ، إذ يجده مواتياً .

* * *

انتزع جمال بيك لارا من مقاعد الدراسة ، فلم يراودها أسى ، ولم يساورها ندم فهي فتاة ، امرأة ، تبغض الدروس والدراسة . وتكره ، بالتحديد ، النشاطات المدرسية : مثل الرياضة البدنية ، والرحلات الطلابية ، والمناسبات والاحتفالات المدرسية .

إنها امرأة صغيرة جذابة تميل إلى الانطواء على النفس . وهذا أمر طبيعي في حالة فتاة فقدت والدها في وقت مبكر من حياتها . ناهيك عن الانطباع السائد عنها ، بأنها خجولة حيية ، ممسكة في كلماتها ، مقتصدة في إشاراتها . وهذه سمة إيجابية في عيني جمال بك . فهو لا يستطيع مع المرأة الثرثارة صبراً .

اختار باريس هدفاً لشهر العسل . فالعرب الذين يترددون على باريس أقل ، حسب معلوماته ، من العرب الذين يترددون على لندن . ناهيك عن أن عرب فرنسا من المغرب العربي في الغالب الأعم . أما عرب لندن فمن المشرق العربي ، وما أكثر معارفه الذين يترددون عليها أو يستقرون فيها .

***

كانت المعاهدة ، أو قل الاتفاق ، ينص على عدم إقامة حفلة زفاف خوفاً من عيون الفضوليين وأنوفهم من معارفهم . ويفضل الطرفان الأساسيان ، أن لا يتبادلا الزيارات ، وينتظرا إلى أن يرسم السيد جمال بدرايته ودهائه اللمسات الأخيرة على خطة

السفر إلى باريس ، بحيث يظن الناس أنه سافر إلى لندن لأسباب صحية غير خطيرة ولا تثير القلق أبداً . كمحاولته العثور على علاج لأوجاع ظهره مثلاً .

وإذا كان السيد جمال قد وجد مشقة شديدة في إخفاء مشروعه الخطير عن أقرب الناس إليه ، فإن لارا لم تجد أي عناء على هذا الصعيد . وبينما بدا جمال بيك فوار المزاج ، متوتر الأعصاب في عيني زوجته ، فإن لارا كتمت سرها في غير جهد على الإطلاق .

وقد أسعفتها نظرتها المحايدة ، وملامح وجهها الفاترة . واعتبارها أن هذا الزواج بات أمراً مقضياً شاءه قدر لا حول لها معه ولا قوة أمامه .

أما جمال بك ، فقد تسلل الارتباك إلى ثقته الراسخة في نفسه . ولولا أن زوجته لا تلقي ، كعادتها بالاً ، إلى نظرة عينيه ، وملامح وجهه ، لرصدت قرون استشعارها خللاً . لكنها كانت تستخف بقدرات زوجها في ميدان الغدر والخيانة الزوجية ، وإقامة علاقات من وراء ظهرها . بل . . الأدق أن نقول إنها كانت تستخف برغبته في إقامة علاقات سرية مع امرأة أخرى فهو رجل رصين لا يخلو من تجهم . يفتقر إلى روح الدعابة ، ويأخذ الحياة على مأخذ الجد بمغالاة ومبالغة .

يستحيل ، ي . . س . . ت . . ح . . ي . . ل ، على مثله

أن يتحول بين لحظة وأخرى إلى شخص صبياني ورجل لعوب . فهو لم يكن لعوباً في صباه . فما بالك به الآن وقد اكتهل .

ولم يأل جمال بك ، المضطرب المرتبك ، جهداً في الإعداد لخطة وسيناريو السفر باستعجال .

كان يلم ببيت لارا ساعة كل مساء . بعد إجراءات «أمنية» معقّدة . واكتشف لهوله ، أنّ اضطرابه هذا لا يعود إلى تأنيب ضميره إزاء زوجته ، وإنما بدأ اضطرابه حين أخذت تتولاه مشاعر غامضة كلما جلس إلى لارا .

ذلك الإحساس بالخفة والنشاط . ذلك الإقبال النهم على قص طرائف من حياته . تلك المقدرة غير المعهودة على رواية النكت المضحكة السخيفة .

في الليلة الأخيرة أدرك وهو يرقد على فراشه متناوماً ان العشق قد ذهب به كل مذهب . وأن كل حركة من حركاته باتت تنطق بعشقه المتفاقم السريع للارا . وأن كل سكنة من سكناته تومئ إلى رغبته الخارقة ، التي لا عهد له بها من قبل ، في اعتصارها بين ذراعيه .

* * *

على الطائرة جلس كل منهما في مقعد بعيد عن الآخر تبديداً لأي شكوك . لكن ، ما أنْ خرجت الطائرة من الأجواء الأردنية ، حتى بدأ جمال بك يغالب رغبة عارمة في الجلوس إلى جوار لارا .

اندلع صراع شرس بين رغبته هذه من جهة ورغبته في الحفاظ على السرية التامة والتمويه الكامل من جهة أخرى ، حتى تغلبت رغبته الجامحة في الجلوس إلى جوارها ، وأفلتت من زمام عقله . بل وزين له قلبه أن في انتقاله للجلوس إلى جانبها ، مجازفة غير محسوبة . وكم يحتاج مثله إلى المجازفات والمغامرات . إذ كيف يمكن لأي قصة حياة جديدة أن تبدأ بلا مجازفة ؟ وهل يعيش المرء قصة حياة عامرة بالمغامرات ، ثم يزعم أنه بدأ قصة حياة جديدة في عمر واحد فإذا هي تقليدية مملة . أليس هذا الزعم مكابرة؟ القصة الثانية التي تبدأ بعد نهاية القصة الأولى في العمر الواحد ليست سوى ملحق شاحب للقصة الأولى ، إذا كانت تقليدية عادية . بل هي إعادة وتكرار للقصة الاولى المعروفة المكرورة ولكن بممثلين آخرين !

ومن حسن طالع جمال «بك» أن المقعد المجاور لمقعد لارا كان محتلاً من رجل بشوش حسن الطوية ، راقبه جمال بك في مجيئه وذهابه إلى التواليت .

فما أن تقدم جمال بك منه ، وسأله بدماثة أن يتبادلا المقاعد ، حتى وافق بابتسامة مشرقة دون أن يبدي أي فضول يذكر .

لم تعلق لارا على هذه النقلة النوعية ، لم تبد تخوفاً ، ولم تبد بهجة . فأعاد جمال بك موقفها المحايد هذا إلى شلل الفزع والقلق !

* * *

مال جمال بك برأسه وأسنده الى كتفها . توقع واحداً من ردي فعل . إما ان تنتفض كالملسوعة وقد راودها الرعب ، فتهيب به بإشارة أو غمزة أو لمزة أن يعود إلى رشده ويتذكر تفاصيل الخطة ، التي تنص على أن يلعبا دور الغريبين إلى أن يصلا إلى موقع سيارات تاكسي المطار . أو أن ترحب بهذه المبادرة الحميمة على استحياء . لكن لارا لم تنتفض رعباً ، ولم يشرق وجهها بهجة ، بل . . ولم يتورد ارتباكاً أو خفراً . وانما اكتفت بابتسامة باهتة .

صحيح أنها ابتسامة لا تنم عن اعتراض أو احتجاج أو تحفظ . لكنها ابتسامة لا تشي ، في الوقت ذاته ، بطرب داخلي ، أو ارتباك محبب خارجي . فهي لم تحرك ساكناً على الإطلاق . وبينما جعل جمال بك يستحضر قائمة الحوادث الطريفة التي وقعت في قصة حياته الأولى ليسردها على مسامعها ، فيحررها من الحرج والخوف ، استسلمت لارا إلى النوم !

طبعاً . هذا أمر طبيعي . وماذا يتوقع المرء من فتاة مثلها أن تفعل؟ ليضع جمال بك نفسه مرة موضعها : ضغوط نفسية هائلة . فتاة طرية لينة . أعصاب متوترة . زواج بلا حفل زفاف . لا طبل ولا زمر ولا رقص ولا فرصة لتزهو بنفسها أمام صديقاتها . خوفها . . نعم ، خوفها . فهي تسافر لأول مرة في حياتها . تستقل طائرة للمرة الأولى . .

ألا يداخل الخوف قلب محترف ركوب الطائرات والسفر ، فما بالك بامرأة ساذجة صغيرة تسافر جواً لأول مرة . دائماً ، في أي تجربة أولى مهما كان خطرها يسيراً يراود الخوف صاحب التجربة . هذا درس تعلمه من مدرسة حياته .

ثم ، لماذا نستثني الخوف منه . نعم ، الخوف منه . صحيح أنها تشعره بالمودة ، لكنها ماتزال صغيرة غضة وهي تدرك أنها مقبلة على ليلة الدخلة . وما أدراك ما ليلة الدخلة بالنسبة لامرأة في سنها .

الرعب الأبيض ، في الغرفة المظلمة .

صورة الخلوة المربكة بينهما . علماً بأن علاقتهما المحسوسة لم تتجاوز حد المصافحة حتى لحظة إسناد راسه إلى كتفها قبل لحظات . هذي منطقة التماس الثانية من بداية علاقتهما .

***

التفهم والاستيعاب والتعاطف . كلمات سر الأيام الأولى التي سيقضيها جمال بك مع لارا في شهر العسل . وثمة اجراءات ينبغي التنبه لها :

أولاً : مراعاة خوفها وخجلها .

ثانياً : أخذ اضطرابها الطبيعي بعين الاعتبار .

ثالثاً : اختيار التوقيت المناسب بروية بعيداً عن التعجل والاستعجال .

رابعاً : تفهم أسباب ميلها إلى الصمت . فهي لاتكاد تعرفه معرفة حميمة ولا حتى دافئة بعد .

خامساً: إرسال فرق استطلاع قبل الهجوم الحاسم .

سادساً : القيام بمناوشات تسخين لا إلحاح فيها قبل الهجوم الحاسم .

سابعاً : معاملتها معاملة امرأة ند محظور حظراً تاماً ، أن تشعربأنك تدللها كفتاة صغيرة . بكلمة أخرى . . كأب .

ثامناً : تنظيم حملة الاطراء ، فلا مبالغة ولا تحفظ ولا صبيانية .

تاسعاً : دب الثقة في نفسها المضطربة . وهذا يتعلق بقدرتك على إزالة الحواجز التي تفصل بينكما ، حاجزاً حاجزاً ، بروية ، لا دفعة واحدة، وعلى حين غرة .

عاشراً : التخفف من التكلف حتى الحد الأدنى . إلا أن إزالة التكلف كلياً بينكما أمر مرفوض . ينبغي أن تبقي على بقعة صغيرة ، في أعماقها تملي عليها احترامك . جزيرة في بحرها الجواني ، تكون مصدراً لتذكيرها ، على مدار الساعة ، أنك صاحب الشأن والكلمة الأخيرة .

إذ ينبغي أخذ صغر سنها بعين الاعتبار . وبالتالي ميلها إلى مواقف طائشة رعناء ، إذا لمست فيك ضعفاً ، ألقى في روعها أنها

تستطيع ركوبك والعبث بك أو تحويلك إلى أضحوكة أمام الناس!

***

تنفس جمال بك الصعداء بعد أن انتهى من الإعداد الدقيق والمحكم لسياسة تسويق نفسه لزوجته الفاتنة الجميلة حين مرت كلمة «جميلة» في حديثه الصامت لنفسه . تهللت أساريره وفكر بصوت مرتفع نسبياً :

ـ احمد ربك على أنها ليست صارخة الجمال . تصور ، لو كانت صارخة الجمال . أنت لا تطمئن للزواج من امرأة في الثلاثين من عمرها ، وصارخة الجمال . فما بالك بامرأة صغيرة مثل لارا .

لا ، لا ، لا . الحمد لله . جمال لارا لا يصرخ فيصك أسماع المارة في الشوارع . جمالها يهمس على استحياء . هيه . . ما أروعه يناسبني تماماً .

هذه المعادلة العبقرية ستضمن تناغم العرض والطلب بينكما .

بوسعك الآن أن تغفو قليلاً وتتنفس الصعداء .

وقبل أن يسترخي جمال بك في مقعده تماماً ، رفع رأسه عن كتفها وتملاها بعينيه ، فرقص قلبه طرباً وشعر بنشوة داخلية فياضة! فتساءل :

ـ ترى أهذا هو ما يسميه الناس . . العشق ؟

***

فتح جمال بك عينيه والتفت نحو لارا فإذا هي منحنية إلى أمام وتشبك ساقاً بساق وتضم يديها فوق بطنها وقد احتقن وجهها بقوة .

بدت له امرأة تعاني من شيء غامض . شيء يشبه المخاض العسير مثلاً . وانتبه لهوله أنها تمسك عبرتها ، وتنطوي على نفسها متململة تكتم لوعة !

انتفض في مجلسه وسألها بحنان وقلق :

ـ مالك؟ هل تعانين من مغص في المعدة؟ من غثيان؟ تشعرين أنك على وشك التقيؤ ؟

فتحت فمها فخرج صوتها من بين شفتيها كالأنين ، قالت بلهجة المعتذرة :

ـ لا . . أبداً . شكراً .

شيء في نبرتها استرعى انتباهه . وومض في باله خاطر أشبه ما يكون بالإلهام المباغت الذي ينقذف في حدس الفنان ، سألها :

ـ لعلك ترغبين في استخدام التواليت . . تغسلين وجهك و . . .

قاطعته بصوت عذب معذب معاً :

ـ وهل يوجد تواليت في الطائرة ؟

قالتها بنبرة امرأة تعاني وتستغيث . فأدرك من فوره أنها بحاجة ماسة إلى استخدام التواليت لتلبية نداء الطبيعة .

انتفض من فوره وقد أدرك أنها بحاجة ماسة إلى أكثر من غسل الوجه ، وقال بلهجة الفارس الشهم :

ـ اتبعيني .

ثم قادها إلى تواليت الطائرة . ولحسن طالعها أنه لم يكن مشغولاً ، فما أن فتح لها جمال بك الباب حتى اندفعت بطريقة توحي بأنها امرأة حامل على وشك أن تنجب . وأن آلام المخاض قد بلغت ما بعد الذروة .

وقف جمال بك أمام باب التواليت وقد أخذ منه الذهول كل مأخذ وجعل يتساءل :

ـ ترى ، لماذا لم تخبرني في وقت مبكر أنها تريد استخدام المرحاض . لماذ لم تلكزني في ذراعي فأنفض الغفوة الهينة عن عيني ، وتسألني :

ـ أين مرحاض الطائرة؟

لماذا كابرت و تجلدت وصبرت على كل هذه المعاناة الواضحة؟

أنا المسؤول . أنا المذنب . كان عليَّ أن انتبه إلى أنها لم تلم بالتواليت ولا مرة منذ انطلقت الطائرة من مطار عمان .

أطلق زفيراً ينم عن غيظ وقال لنفسه مؤنباً معنفاً :

ـ ينبغي أن تلتفت إليها بعناية أكبر . إنها مجرد طفلة كبيرة .

حين خرجت من الحمام رمقها بنظرة مستطلعة مشوبة بالعطف ، فبدت مرتاحة وفي عينيها جذل كأنها كانت ترغب في أن تتخلص من شيء ملح لكنها لا تعثر على خلوة . كأنها كانت تتلهف على أن تتخلص من دموع غزيرة تحبسها في عينيها بقوة المستميت اليائس . ولا تعرف أين المكان المخصص لذرف الدموع والتخلص منها ، في طائرة تعج بالمسافرين .

سألها البيك قلقاً :

ـ ارتحت الآن ؟

هزت رأسها بالإيجاب . كانت تتنفس الصعداء على ارتباكها .

قادها إلى مقعديهما وسألها بعتب :

ـ لماذا لم تقولي لي إنك بحاجة إلى استخدام التواليت في الوقت المناسب ؟

تضرج وجهها حياء . فاختلج قلبه بعنف وأحس بعشرات الينابيع الخفية في قلبه تتفجر متدفقة بسيل من الحب والعطف . كاد أن يضمها بين ذراعيه بقوة في ممر الطائرة ، إلا أنه تمالك نفسه .

اتخذ كل منهما مقعده . وكان غنياً عن البيان بالنسبة لجمال

بك أن زوجته لم تسأله عن التواليت في الوقت المناسب لأنها تظن أن وجود تواليت في الطائرة ، أي طائرة ، أمر مستحيل . إذ هل توجد فتحة خاصة يتخلص المسافرون من «فضلات» الأحشاء فيها؟!

لا بالطبع . فلا أحد يضمن أين ستسقط هذه «الفضلات» القذرة . ماذا لو سقطت على رأس رجل محترم أصلع يمشي على الأرض تحت الطائرة مباشرة بمحض الصدفة . . لا يضع قبعة على رأسه مثلاً ؟ لا . لا يمكن. مستحيل .

يالها من مخلوق هش بريء ينتزع مشاعر الحب من نفس الرجل ، الواثق من نفسه ، انتزاعاً ! ياللرقة المتناهية !

ثم ، ما هذا الخجل الارستقراطي الذي ينم عن كبرياء شاهقة في جوانح امرأة رقيقة الحاشية؟ خجل لا ترعوي معه أن تتألم وتصبر وتكابر ، مقابل أن لاتزعج زوجها . فتلكزه بكوع ذراعها ليستيقظ فتسأل عن قضية التواليت هذه؟

غمر جمال بك شعور غامر بالوله والغرام ، حتى انه كاد يفقد سيطرته على نفسه ويعانقها بقوة أمام الناس لولا توثب إرادته الجبارة وامتلاكها له في اللحظة الاخيرة .

وعلى الرغم من ذلك فقد عثر على نفسه يسألها بعتب :

ـ هل تخجلين مني ؟

أطرقت صامتة وهي تضم يديها الصغيرتين الورديتين على

حضنها . أطلق ضحكة مجلجلة وقد رقص قلبه طرباً وعاد يسألها بلهجة المناكف المداعب هذه المرة :

ـ هل نسيت أنك زوجتي . . وأننا بتنا كياناً واحداً ؟ انحنت فترامت خصلات شعرها الاسود الطويل على كتفها ، وجعلت تعبث في أصابعها دون أن تنبس .

قرر جمال بك أن يمسها بيده . فمن شأن تكرار المس واللمس كسر حاجز التكلف والخوف .

ربت على كتفها وتناول خصلة من شعرها ثم مال وقبل هذه الخصلة قبلة خاطفة . سألها بصوت حميم لايخلو من نبرة مناكفة محببة :

ـ هل تحبينني كما أحبك ؟

انتظر الجواب المتوقع . انتظر أن تقول : طبعاً أحبك . لكن انتظاره طال . فانكفأ عنها قليلاً وقد خال أنها ما تزال تحت وطأة الخجل . ثم سألها محاولاً اجتراح معادلة حساسة تستفزها من جهة ، وتراعي حياءها وتحفظها وبراءتها من جهة أخرى :

ـ حين نصل إلى غرفتنا في الفندق . . هل ترغبين في أن أقبلك على خدك أم على فمك؟

ظهرت البغتة على محياها . ثم همست مرتبكة :

ـ لا أعرف .

تولاه شيء من الغيظ . كان يتوقع أن تتغلب على حيائها

وتطلق ضحكة رنانة وتقول :

ـ على فمي طبعاً .

لكنها باغتته بجوابها غير المتوقع : «لا أعرف» تفكر جمال ملياً ، ثم لعن نفسه في سره وقال بلا صوت : أحمق ، تريد أن تحملها على حديث لم تستعد له نفسياً وروحياً واجتماعياً بعد ؟!

* * *

حين استقر في غرفة الفندق المتفرع عن شارع الشانزاليزيه قال لها :

ـ هذا فندق أربع نجوم . كان بوسعي ان أحجز غرفة في فندق خمس نجوم طبعاً . لكننا في جوار الشانزاليزيه . لا تنسي أنه أغلى شارع في العالم . هذا ما أعتقده . صحيح أنني ثري . . لكنني لست مليونيراً . .

وضحك ضحكة عصبية . والحق أنه قال ما قاله عن سابق تصور وتصميم . إذ أراد أن تعرف ، منذ البداية ، موقعه الطبقي بالضبط . فلا تذهب بها الظنون إلى أنه من الأثرياء المئة الأوائل في عمان .

وكان صادقاً معها . فهو ينتمي إلى الشريحة العليا من الطبقة الوسطى ، ولكنه ليس عضواً في نادي الخمسة بالمئة فهو ليس من أصحاب الأراضي الشاسعة في غرب عمان . وهو لاينتمي إلى تلك الفئة من العمانيين الذين سعوا إلى الدول النفطية في الوقت

المناسب ، فقضوا ربع قرن أو أكثر في جمع أموال طائلة ، ولم يكتفوا بأن يظلوا مجرد موظفين ، وإنما انتقلوا إلى حقل الشراكة مع أثرياء تلك الدول . وهو لم يحفل بالسياسة يوماً . فلم يقم علاقات استثمار مع أولئك الذين عرفوا من أين تؤكل الكتف في عهد الازدهار . كل هذا لا يعني أنه ينتمي إلى طبقة ذوي الدخل المحدود أبداً . كان يحلو له ان يصنف نفسه طبقياً بدقة : انه ينتمي، كما قال ، إلى الشريحة العليا من الطبقة الوسطى . . .

وبينما كانت لارا تتعرض لشعور عارم بالارهاق والرغبة في النوم ، جعل يحكي لها قصة كفاحه ، وكيف استطاع أن يبني مؤسسته التجارية من الصفر . .

لماذا؟ لماذا استعجل جمال بك في شرح موقعه الطبقي للارا في إسهاب ممل ؟ زلة لسان؟ ضرب من الغرور واستعراض العضلات ؟

لا ، لا ، لا .

نحن ياسيدي في باريس . وعلى بعد ثلاثة أرباع الكيلو متر من الشانزاليزيه ، ولارا هذه فتاة ساذجة لا تعرف الفرق بين شارع الشانزاليزيه ، والشارع التجاري الرئيسي في جبل الحسين مثلاً .

وجمال بك لا يرغب في أن يتعرض لمواقف محرجة . كأن يتأبط ذراع لارا بهدف شم الهواء مشياً في الشانزاليزيه ، فتضطره منبهرة مذهولة أن يقف أمام كل محل فخم من محلات بيع

الملابس . ثـم تجـره من يده وتـدخـل المحل وقـد اسـتـبـد بهـا هوس الشــراء بغض النظر عن الأسـعــار . نعم ، الشـراء عند نســاء الأثرياء، أو اللواتي يعتقدن أن أزواجهن يتمون إلى فئة الخمسة بالمئة ، أو العشرة في المئة . . . له طابع الهوس .

جـمـال بك يعـرف هـذه الظاهرة بـدقـة . ولـنتـذكـر أنه كـان متزوجاً (ومازال) من امرأة تعتقد أنه صاحب ملايين . وهي سيدة حكيمة عاشت معه ربع قرن من الزمن ، فكيف ستتصرف لارا التي لم تعش معه بعد ؟

نعم ، الوضوح والصراحة يحلوان لجمال بك . ثم إنه جاء بها هنا للاستمتاع ، لا للتسوق . لقد زار باريس أربع مرات من قبل . لكنها كلها زيارات عمل منهكة لم تتح له مشاهدة متحف اللوفر ، ولا برج إيفل ، ولا قصر فرساي الخ . . . «باريس متحف قائم بذاته» هذا ما قاله صديق له وهو يوبخه عندما علم أن جمال بك زار باريس ، ولم ير سوى فندقه ، وشركات يتعامل معها ، ومطاعم رسمية يدعو إليها مديري هذه الشركات على غداء عمل . . مثلاً .

دخل جمال بك الحمام بعد أن انتهى من إلقاء محاضرته هذه . فاستحم وتفجرت في أعماقه ينابيع النشاط وتبدد إعياء السفر والقلق الذي سبقه . ففرك يديه حماسة ، وهو يتدفق حيوية ، ويغني مقاطع من أغنية رباعيات الخيام فرن صوته وهو

يدخل في «روب» الحمام ويتأهب للخروج :

ما أضيع اليوم الذي مرَّ بي

من غير أن أهوى وأن أعشقا

فما أنْ فتح الباب مشرق الوجه زاهر الجبين ، حتى رأى لارا تغط في نوم عميق فوق السرير ، بكامل ملابسها !

عنَّ له ، بعد أن سيطر على خيبته وإحباطه ، فدنا من مخدعهما على رؤوس أصابع قدميه ، ثم جلس على طرف السرير بخفة لص محترف . وأخذ يفك أزرار الجهة العليا من ثوبها بيد متأنية ذات روية . ثم سحب طرف الثوب من الجهة السفلى بحركة رقيقة رفيقة لم تشعر بها لارا التي أدركها الإعياء فأطلقت نوبات شخير متقطعة .

لم يعد ثوبها يغطي سوى جزء محدود من جسدها . فلما حملق جمال بك بالاجزاء المكشوفة ، رأى بشرتها زهرية يانعة تضج بشموخ يافع . اغرورقت عيناه بالدموع . وأدرك أنه يعشق هذه المرأة الربيعية ، عشقاً فيه حرائق تضطرم، وشرار يتطاير ، ولهيب تلسع ألسنته كل مسام من مسامات كيانه ، وزلازل جعلت لبه يطيش ، ودفعت قلبه إلى ان ينطح قفصه الصدري باستماتة وبلا هوادة ، كأنه طير عظيم كان يحتضر ، فبعثت به الحياة من جديد ، بكل قوتها وعنفوانها .

رن جرس خطر خفي في أعماق جمال بك . وسمع نفسه

يفكر بصوت عال ويقول :

ـ انتبه . . زمامك يكاد يفلت . تكاد تفقد السيطرة على نفسك .

انتفض واقفاً ، ثم تراجع خطوة إلى الوراء : ينبغي ان تستيقظ . ينبغي .

عثر جمال بك على نفسه يغني أغنية لا يدري أي قوة استحضرتها من ذاكرته ولماذا . ولكنه أدرك أن الأغنية ليست مقصودة لذاتها ، فهو لا يغني طرباً . لا ، لن يتحايل على نفسه ويضحك على ذقنه ، ويقنع نفسه أنه يغني طرباً. إنه يغني بصوت مرتفع كي يزعجها الصوت ويعكر صفو نومها ، فتستيقظ .

«طلعت يا ما احلى نورها . . . »

ثم ألقي في روعه ان أغاني فيروز أرق من أن تقوم بهذه المهمة، فاختار أغنية لفهد بلان :

«يابنات المكلا . . يادوا كل عله . . ولركب حدك يا المتور ركب الطيارا هيي هي . . ههي . . ههي . . هو هو ها ها ي . . »

وهكذا وصل صوت جمال بك الى أعلى طبقة ممكنة ، ولم يبق له سوى أن يصرخ ويولول ، مما لا يليق برجل محترم مثله ، لكن كل «الهاي والهي» التي اشتهر بها المطرب فهد بلان لم تفلح في إيقاظ لارا .

ظلت هامدة لا تحرك ساكناً . تتنفس بانتظام وتطلق سلسلة

شخير متقطع بين الحين والآخر .

وما هي إلا لحظة يأس حتى صب جام غيظه المكتوم على شخيرها .

ـ ماذا؟ فتاة أرق من نسيم الهواء . . وتشخر؟ ظاهرة تثير الاشمئزاز . عروس في ريعان الصبا . . خجولة حتى أن القطة قد تأكل عشاءها ، فتستحي من طردها ، لا بل إن حياءها سيحول في الأغلب دون أن تنهرها . . عروس مثل هذه . . بريئة نقية كالثلج . . وتشخر؟ أمر لايصدق !

ينبغي أن تستيقظ ، عليه أن ينبهها إلى أنها تشخر . لن تصدق «أنا . . أشخر ؟ غير معقول » هكذا ستعترض مستنكرة .

دنا جمال بك منها ، إلا أن قلبه لم يطاوعه . فبعد أن مد يده وقبض على ذراعها وهمّ بهزها برفق كي تستيقظ ، عاد وتراجع خطوة إلى الوراء .

فكر بصوت هامس . لكنه مسموع :

ـ جمال بك . أنت رجل نبيل . العروس متعبة . . لا يجوز . ضرب قدمه بالأرض غضباً . ثم عنّ له ، فدخل الحمام ، واغتسل بمياه باردة جداً ، سعياً إلى التخفيف من غلواء جذوة رغبته في مغازلتها !

خرج من الحمام وقد دخل في منامته . ثم اتخذ مجلسه على كنبة وشغل التلفاز بجهاز التحكم . وجعل يقلب القنوات

بعصبية . كز على أسنانه وتنفس بعمق ، ثم ذكر نفسه بقائمة السياسات التي خطط لها ، كي يسوق نفسه في قلبها ، فشبك ساقاً على ساق وجعل يهز الساق الأولى هز المتوتر . ثم عنَّ له فضغط عن سابق تصور وتصميم على الزر الذي يتحكم في رفع صوت التلفاز . فأصدرت الشاشة الصغيرة ضوضاء وصخباً ، دفع نزيل الغرفة المجاورة لغرفتهما إلى الطرق على الجدار المشترك ، فاستسلم للأمر الواقع وأسقط في يده .

استيقظت لارا في المساء . لم يكن النهار قد ذوى بعد . فاقترح جمال بك عليها أن يخرجا ويتمشيا في شارع الشانزاليزيه ويشما هواء باريس الطلق .

ما أن استقبلهما الشارع المتفرع عن شارع الشانزاليزيه ، حتى قال لها وهو يتأبط ذراعها :

ـ بالمناسبة . . اكتشفت عند قيلولتك أن نومك ثقيل إلى حد خارق . ابتسمت على استحياء ، وتورد وجهها ثم قالت بصوت أقرب إلى الهمس :

ـ كنت متعبة .

فانتهز جمال بك الفرصة وقال متبجحاً :

ـ متعبة؟ هذا دليل على قوتي ونشاطي . أنا لم أتعب أبداً . مع انني أكبر منك طبعاً . لكن ، الصحيح ، أن كل أصدقائي وأبناء جيلي يحسدونني على همتي الاستثنائية . بالمناسبة ، أنا لم

أقل لك حتى الآن إنني كنت رياضياً يشار إلي بالبنان . هل تعرفين أنني أتغلب على ابني الشاب حين نلعب لعبة مصارعة الذراعين ؟ حتى يومنا هذا . والله . . نتكاسر بذراعينا فأكسره وأبطح ذراعه على الطاولة ، بلا مشقة تذكر . . صدقيني!

التفت نحوها يتوقع تعليقاً ما . لكن لارا اكتفت بابتسامة خجولة ولم تنبس ، فقال جمال بك :

ـ ولعلك لاحظت أنني لا أدخن أبداً ، علماً أن ابني يدخن أربعين سيجارة في اليوم . تصوري !

لم تكن لارا ساذجة إلى الحد الذي اعتقده جمال بك . فقد فطنت إلى ما يرمي إليه من وراء كلامه هذا . إلا أنها تجاهلت مكابرته وتبجحه المبالغ فيه والمكشوف ، ونثرت نظراتها على المارة والأماكن دون أن تنبس .

حين بلغا شارع شانزاليزيه . سحب جمال بك ذراعه من ذراعها ، وابتعد عنها خطوة . ثم ابتسم ابتسامة عريضة وقال بحماسة :

ـ أنت الآن ، يا سيدتي ، في أروع شارع في الدنيا . هذا هو الـ . . شانزاليزيه .

وسارع جمال بك إلى التفرس في ملامح وجهها ليقرأ وقع النبأ العظيم عليها .

أبرقت عيناها خطفاً ، ثم حلت فيهما نظرة فاترة ، على أنها

ابتسمت ابتسامة مجاملة تشي بالامتنان .

عاد جمال بك وأخذ يدها بيده وأشار إلى اليسار بحيوية . قال مدارياً عدم يقينه ، متكلفاً المعرفة الكاملة بالشارع :

ـ إذا ذهبنا في هذا الاتجاه . . فسوف نصل إلى قوس النصر العظيم، وإذا مشينا في ذاك الاتجاه وصلنا إلى المسلة الفرعونية . . . على ما أذكر . فأي اتجاه تفضلين ؟

كان في نبرة سؤاله إيقاع ينم عن حيوية وبهجة عارمتين . ولكن لهجته وشت ، كذلك ، بأنه واع تماماً إلى كونه صاحب الفضل في حملها إلى هنا . وأنها ، لولاه ، لما وقعت عيناها على الـ «شانزاليزيه» أبداً . . بل وربما باريس كلها .

ولم تفت هذه الإيماءة المختبئة بين كلمات جمال بك وحيوية صوته ملاحظة السيدة الصغيرة الذكية . إن لم نقل الخبيثة ربما! . . وما أدراك إن كيدهن . . .

ولعل شعور جمال بك بأنه أتاح لفتاة تدهورت حالة عائلتها المادية بعد وفاة والدها المبكرة ، هو الذي يفسر طريقة مشيته . وهي مشية فيها خيلاء وعجرفة . وربما يقف سبب آخر وراء مشيته اللافتة للنظر هذه . لعله يتفاخر أمام العابرين بأنه يتأبط ذراع صبية كالورد على الرغم من توغله في الكهولة ، والله أعلم!

***

عاد جمال بك وسألها بصيغة مختلفة :

ـ هل ترغبين بالمشي نحو قوس النصر ؟

قالت :

ـ كما تريد .

أزعجت سلبيتها أو خجلها المبالغ فيه جمال بك فقال بصرامة وكأنه يتحداها .

ـ لا . كما تريدين أنت . أنت . . حددي الاتجاه .

أومأت برأسها نحو قوس النصر .

كان هذا الشارع الفريد قد تحول إلى آية من آيات الجمال الفاتن مع انهمار الليل وإضاءة الكهرباء .

مشهد خارق فعلاً . وظل جمال بك يمشي منتظراً تعليقها . متسائلاً :

ـ هل ستقول : يا ربي . ما كنت أتخيله بهذا الجمال . أم ستقول : يا الهي . . هذا أجمل شارع رأيته وسأراه في حياتي .

لكنها لم تقل وانتظر تعليقها فطال انتظاره، وبدأ جمال بك يضيق ذرعاً بهذا الانتظار . وعندما نفد صبره تماماً سألها مداريا حنقه :

ـ هيه ؟ لم تقولي لي . . رأيك .

لم تلتفت نحوه . أطرقت وسألته :

ـ رأيي ؟ في ماذا ؟

حاول جمال بك ضبط أعصابه ، وغالب موجة غيظ غمرته ، لكنها غلبته فقال بغيظ مفضوح :

ـ بماذا ؟ . . بلون عيني ؟ بتصفيفة شعري؟ كيف تقولين : بماذا ؟ ب الـ «شانزاليزيه طبعاً» !

بدا وكأنها لم تفهم أنه حانق ، واعتقد أنها لم تفهم ما هي العلاقة بين لون عينيه وتصفيفة شعره من جهة (علماً بانه أصلع) وبالشانزاليزيه من جهة أخرى .

وتساءل في سره :

ـ ما هذا ؟ غباء أم حياء مفرط ؟ لعلها بحاجة إلى درسين أو ثلاثة كي تتعلم كيف تكون اجتماعية أكثر ، واثقة بنفسها أكثر . ولكن . . التمس لأخيك عذراً . تذكر أنها ما زالت امرأة صغيرة ، وأنها لاتكاد تعرفك . كان عليك أن تتفهم أن هذه الفتاة المسكينة مرتبكة تماماً : تنتزعها عن مقعد الدراسة وتحط بها في باريس . من الطبيعي أن تفقد شيئاً من توازنها . هل أعتذر لها ؟ لا . سبق السيف العذل . لقد ارتكبت خطأ جسيماً حين خرجت عن طورك وزعقت في وجهها ، لكنك سترتكب خطيئة بحق نفسك ، على المدى الطويل ، إذا اعتذرت لها . تجاهل الأمر . املأ رئتيك بالهواء . وواصل المشي كأن شيئاً لم يكن .

في تلك اللحظة التفتت لارا إليه وسألت بلهجة مترددة :

ـ تعبت . ممكن تجلس في مكان ما ؟

تعبت؟ غير معقول . لم نمش سوى نصف ساعة فقط . لكن رب رمية من غيررام . ألم تتعب أنت ؟ نعم ، لا تكابر . اعترف لنفسك بصراحة أنك تعبت .

أعترف لنفسي ؟ لابأس . لكن ، لن أعترف لها .

سألها متكلفاً الدهشة :

ـ ولكننا لم نصل إلى قوس النصر بعد ؟

قالت بصوت خافت :

ـ نجلس قليلاً . . ثم نواصل المشي .

فما أن أنهت قولها ، حتى أخذها من يدها وانعطف نحو أحد المقاهي الراقية فطلب لها زجاجة بيبسي كولا ، وقد نسي ان يستشيرها ، ثم طلب كأس نبيذ أبيض لنفسه!

* * *

خطر لجمال بك ان يستدرج لارا إلى الكلام استدراجاً ، لعلها بعد قليل من الحديث تتحرر من هذا الحياء المفرط . ابتسم ابتسامة مصطنعة . وسألها متكلفاً الفضول والاهتمام :

ـ حدثيني عنك . عن أحلامك ، طموحاتك ، أو عن صديقاتك مثلاً . ترى هل تحبين الكمبيوتر ؟

تورد وجهها وبدت له كالطفل المرتبك ، ثم قالت :

ـ يعني نص على نص . لا أحبه كثيراً ، لكنني لا أكرهه .

أشرق وجه جمال بك وحدثته نفسه بأنه استطاع أن يدخل عالمها لأول مرة .

فعاد وسألها :

ـ تعرفين أن العالم اليوم بات يعيش عصر الكمبيوتر ، ومع ذلك سوف أفضي لك بسر سيجعلك تموتين من الضحك . . . اسمعي ، أعترف أنني لا أعرف شيئاً عن الكمبيوتر بل ولا أعرف شيئاً عن «الفاكس» . هل تعرفين كيف تستخدمين «الفاكساميلي»؟

نترت رأسها سلباً ولم تنطق بحرف . لكن جمال بك لم ييأس . قال لها وفمه يمتلئ بالضحك :

ـ اسمعي هذه الحكاية الممتعة . أول مرة اشترينا جهاز فاكس للشركة . . زمان يعني تقريباً . كتبت رسالة إلى صديق في ألمانيا . . عنده فاكس ، وعندي رقم فاكسه . ثم ناديت سكرتيرتي وأعطيتها الرسالة وأشرت عليها أن تبعث رسالتي عبر الفاكس الجديد إلى صديقي في ألمانيا . لن تصدقي ما حدث ستموتين من الضحك : تناولت سكرتيرتي الرسالة بكل تهذيب وخرجت . وبعد قليل عادت وهي تحمل الرسالة بيديها . ابتسمت كأن شيئاً لم يكن ، وأعادت لي الرسالة قائلة بدماثة السكرتيرات المصطنعة :

ـ تفضل جمال بك .

حملقت بها وقد تطاير الشرر من عيني ، بالمناسبة . . أنا

أحياناً عصبي المزاج ، لكنني طيب القلب . والله العظيم ! المهم يا ستي ثارت ثائرتي وزعقت في وجه السكرتيرة :

ـ لماذا لم ترسلي الرسالة ؟ لماذا تعيدينها إلي ؟ ألا تعرفين تشغيل الجهاز ؟

ابتسمت مضطربة وقالت كالمعتذرة :

ـ عفواً جمال بك أرسلت الرسالة . فتحت فمي كالأبله ، ونهضت عن مقعدي وخطفت الرسالة من بين يديها ثم صرخت :

ـ أرسلت الرسالة ؟ مجنونة أنت ؟ إذا كنت أرسلت الرسالة . . . فما هي هذه الورقة التي أحملها بين يدي ؟ أليست هذه الورقة هي الرسالة ذاتها ، إذن كيف تعيدينها إلي ، ثم تقولين إنك أرسلتها ؟ وإذا أرسلتها فلماذا بقيت هنا . . بين يدي ؟

تصوري كنت أعتقد أن الفاكس نوع متطور من البريد الجوي .

أطلقت لارا ضحكة خافتة . فرفع جمال بك كأسه بغطرسة منتصر ، ورشف النبيذ في سعادة ، وقد استعذب ضحكتها .

قال وقد ارتفعت معنوياته وانشرح صدره :

ـ اسمعي لارا . أنا أعرف أنك صغيرة . وأنا بالمناسبة ، كنت أبحث عن زوجة صغيرة . لماذا؟ لأنني أرغب في أن أربيها على يدي من جهة ، فتصبح قطعة مني . وليكون ماضيها نظيفاً . لا حب سابقاً ، ولا غرام مع رجل قبلي ولا من يحزنون . هكذا ،

سيصبح حاضري ماضيك . لأنك بلا ماض من الناحية العملية . فلا ماضي للإنسان قبل دخول الجامعة ، بل بعد التخرج فيها . . حتى . أما ما جرى له منذ ولادته حتى دخوله الجامعة فأحداث ثانوية ، وتفاصيل هامشية لاتقدم ولا تؤخر . لذلك ، أعدك يا لارا أن أجعل منك سيدة مجتمع مرموقة ذات شأن . لكن عليك ان تساعديني قليلاً ، فتتجاوبي معي ، وتقاومي خجلك المفرط هذا . والآن أثبتي لي أنك ستتجاوبين معي . . احكي لي نكتة ، مثلاً .

أطرقت رأسها وقالت بصوت خفيض إنها لا تحفظ أي نكتة . فرفض جمال بك حجتها هذه رفضاً قاطعاً ، وحاصرها بإلحاحه :

ـ أية نكتة . . حتى لو كانت ثقيلة دم أو سمجة لأن نكتتك مطلوبة لتثبت لي أن الحواجز بيننا بدأت تنهار . . يعني لا ضرورة لأن تضحكيني حتى . هيا . . احكي نكته .

قالها بتصميم ثم سكت . ساد صمت ثقيل ، حين بدأ صبره ينفد ، وعندما همَّ بإجبارها بأي وسيلة على إلقاء نكته ، كانت نظراته القاسية قد أعيت لارا ، فاستسلمت وقالت وهي تهرب بعينيها من عينيه وتداري اضطرابها :

ـ مرة راح رجل ليقعد على القهوة . . فقعد على الشاي !

ارتعد جمال بك نشوة . لقد نجح في تحقيق قفزة نوعية في علاقتهما أخيراً . لقد حملها أخيراً على تخطي حاجز الخجل .

فأطلق ضحكة مجلجلة أشبه ما تكون بنوبة هستيرية ، حتى أن بعض الزبائن التفتوا فضولاً . وظل يضحك ، حتى انتقلت العدوى إلى لارا ، فأضحكتها ضحكته الغريبة المضحكة .

لم يصدق حواسه . ها هي تضحك على سجيتها ، لا بل إنها انكفأت إلى الوراء من فرط الضحك وتطايرت خصلات شعرها الأسود الحريري على كتفها .

يا إلهي . غير معقول . غير معقول . ضربة معلم . ضربة معلم .

حين تمالك نفسه ، وتمالكت نفسها رمقها بنظرات عاشقة ساذجة ، وقال لها ببساطة لا حد أدنى للتحفظ فيها :

ـ تعرفين؟ الآن ارتحت . والله إن صمتك أقلقني حتى أنني خفت وقلت لنفسي : لعل صمتها وسلبيتها على علاقة بالاكتئاب لا بالخجل . وكدت أموت خوفاً .

وجعل يحكي لها عن ابن أخيه الذي أصيب بحالة اكتئاب مرضية حادة بعد وفاة أبيه في قت مبكر . واندفع يشرح لها معنى الكآبة . وقال إنّه مرض خطير جداً . وإن ابن أخيه هذا ما كان يرغب في الحياة . ولا يجد متعة حتى في أشياء الحياة الممتعة . وأكد أنه مرة أخذه إلى النمسا ، إلى الجزء النمساوي من جبال الألب : جنة الله على الأرض . من أجمل ما رأت عيناه من مناطق . لكن ابن أخيه ظل سلبياً فاتراً لا يبدي متعة ولا سعادة .

وكان ينظر إلى أجمل الجبال والغابات بنظرة فاترة وعينين ذابلتين لا حياة فيهما . حتى أنه رفض أن يتعلم التزلج . . مع أن جمال بك نفسه ، حاول أن يتعلم التزلج ، واستمتع بالمحاولة ، وصار سعيداً كالأطفال .

وأنهى حديثه قائلاً :

ـ أنا الآن أسعد إنسان على وجه الأرض . لماذا ؟ لأنني أراك سعيدة . . والله !

إلا أن ملامح وجه لارا سرعان ما عادت محايدة ، وخيل لجمال بك أنه لمح نظرة كئيبة في عينيها بعد أن روى لها قصة ابن أخيه الكئيب . فعاودته مخاوفه . وسألها إن كانت قد شعرت بالاكتئاب حين توفي والدها ، فقالت إنها حزنت ، لكنها لا تعرف ماذا يعني بـ «الاكتئاب» .

تنفس جمال بك الصعداء . إذن المسألة كلها مسألة خجل . وقد بدأ هذا الخجل بالذوبان أصلاً .

أتى على كأسه . ثم قال وهو يتململ في مقعده إنه يرغب في العودة إلى الفندق . قال مخادعاً ماكراً :

ـ نبدل ملابسنا . . وننزل لنتناول العشاء في مطعم فاخر .

وكان جمال بك يضمر أمراً آخر : لقد بلغت رغبته في الإحساس بامتلاك لارا ذروة أفقدته قدرته على انتظار موعد النوم العادي . وقد أحس بأنه عاجز عن السيطرة على رغبته في

مغازلتها حسياً ، بالتحديد ، حين انطلقت تضحك على سجيتها .

يا الـهي . كم بدت شـهـيـة . حـتى ان صـدرها المكين اهتـز بطريقة لا توصف . إلهي . يا إلهي !

***

بدت طريق العـودة إلى الفندق طويلة . هكذا شعـر جمـال بك ، حتى إنه أخذ يتلفت حوله ، ويعاين المواقع ويتفقد الأمكنة ، إذ خطر بباله أنهما سلكا الشارع الغلط .

لكن إحسـاساً غريباً باستعذاب هذا «الضياع» راود «البك» . بدا وكأنه يستعذب الإحساس بأنه بات قريباً من هدفه .

ما هو هدفه ؟

واضح :

أن يقـطف لارا هـذه الزهـرة التي أينعت لتـــوها أو تكـاد . ياللذائذ غنائم الكنوز الخفـيـة المجـهـولة التي لم يكشفـهـا أحـد من قبله . يا لحيوية رائحتهـا الدافقة بطراوة عذرية لم يشمـهـا أحد قبله غير أمها .

ثم إنه سـوف يمنحـهـا حـاضـره ليكـون مـاضـيـهـا . امـرأة بلا ماض . زوجة يانعة لم يتكون ماضيها بعد . سوف يكون مستقبله حاضرها . قصة حياته الثانية ، هي قصة حياتها الاولى .

قـال مـاذا ؟ قـال انتـهت قصـة حيـاته قبل أن تنتـهي حـيـاته ! يا للمسخرة والتفاهة . دع العجزة واليائسين والبائسين يقولون ذلك

عن حيواتهم بعد أن يتقاعدوا . أما هو جمال بك العصامي المكافح ، فلن تكون حياته سوى سلسلة لا تنتهي من القصص الحية النابضة الدفاقة . ربما . . ربما . . في يوم من الأيام ، حين يدنو من نهاية رحلة حياته ، ربما يختار هو وبكامل حريته ، لا تحت ضغط الضجر أو العجز ، أن يتفرغ لكتابة قصص حياته . نعم ، لن يكتب قصة حياته . لأن قصة الحياة تنتهي في الأغلب الأعم ، قبل أن تنتهي الحياة .

خذ ذلك السجين الذي دخل المعتقل وهو في الثلاثين من عمره . ثم أطلق سراحه بعد بلوغه الستين وإصابته بمرض عضال . ها هو يتنقل من مستشفى إلى آخر ، إنه يحتضر . هذا الرجل انتهت قصة حياته وهو في الثلاثين من عمره . فإذا أخذنا بعين الاعتبار ، أن الأحداث الحقيقية الساخنة الجسيمة لا تبدأ قبل سن العشرين تقريباً . فإن هذا المعتقل لم يعش سوى قصة حياة واحدة قصيرة جداً : عشرة أعوام .

إنها أقصوصة حياة ، لا قصة حياة .

ولكن ، ماذا لو انتهت قصة حياة جمال بك الثانية بعد ثلاث سنوات أو أربع؟ ماذا لو خمدت رغبته المتأججة بعد سنوات قليلة؟ ماذا لو انطفأت جذوة فضوله في رؤية نتائج تربيته لها على يده ؟

نعم ، ثمة احتمال : أن يمنحها حاضره ماضياً ، ومستقبله

حاضراً ، لكنه قد يملها ، قد يفقد همته وعزيمته على صياغة شخصيتها . قد ينصرف عن العمل على مشروع تكوين هويتها .

وماذا في ذلك ؟ سوف تكون قصة حياته الثانية في عمر واحد قد انتهت . سيبدأ قصة ثالثة ، سيخوض مغامرة جديدة ، ويعمل على مشروع جديد لعله يهاجر إلى كندا أو استراليا . . فيكتشف عوالم طازجة لم يقف على أسرارها من قبل . نعم ، نعم، الحياة مثيرة . مثيرة . يالشقاء الذين تنتهي قصة حياتهم قبل أن تنتهي حياتهم فلا يجددون . أولئك الذين تقاعدوا من الحياة قبل أن ينتهي العمر .

يتكومون على آرائكهم في ضجر . . بانتظار الموت .

* * *

بدأ جمال بك بتنفيذ ما أضمره من أمر . ما أن دخلا غرفتهما في الفندق حتى قال لها إنه يقترح عليها أن تأخذ حماماً ساخناً ، ثم تخرج ، فترتدي ثياب السهرة ، فيغادران الفندق إلى مطعم فاخر .

ياله من عبقري خبيث . حين طأطأت لارا ثم دخلت الحمام بطواعية ، وكأنها استحسنت اقتراحه . سارع الى خلع ثيابه كلها ، وأوى إلى الفراش شبه عار . واندس تحت غطاء السرير ، بانتظارها ، وقد تحلب ريقه ، وتأججت شهوته فيها فبلغت ذروتها .

خرجت كالشمس التي تبزغ في فجر صاف والهواء رخي .

كانت في «روب» الحمام . قال لها من فوره وقد أضناه الانتظار :

ـ تعالي نرقد قليلاً . . دقيقة أودقيقتين . نلتقط أنفاسنا ، ثم ننهض .

سعت نحو مخدعهما بخطوات وئيدة .

وفي مخدعهما روعتها المفاجأة الخفية . هكذا . . كانت مباغتة كأنها أخذت على حين غرة .

تجلى رد فعلها الغريزي الأول بالانكماش على نفسها بقوة . والتشبث بروب الحمام .

خرج جمال بك عن طوره ، وحاول غزوها بكافة الوسائل ، إلا أن رعب المفاجأة أغدق عليها قوة خارقة جبارة . فمانعت دون أن تصد بعنف . ودافعت دون أن تبادر إلى الهجوم .

بدت كحصن منيع عصي على قوة جمال بك ابن الخمسين .

ابتعد عنها بوثبة مباغتة . كان يلهث ويخور . توقّعت لارا هجوماً عنيفاً هذه المرة . هجوماً حيوانياً لفارس معتد متغطرس هزمه ولد صغير في الجولة الأولى .

سيندفع نحوها في هجوم كاسح . هجوم حيوان جريح مستميت . فاستنفرت روحها وتهيأ جسدها للمقاومة . لكنها بوغتت تماماً عندما رأته ينحني بجسده المترهل عند قدميها . ويميل نحوهما ، ثم ينهال عليهما قبلاً مستعطفة نهمه معاً . . . ويبكي .

يبكي! يا للهول . هذا الرجل العظيم العملاق الحكيم ، ينهار على قدميها باكياً لعله أفرط في شرب النبيذ . كم كأس نبيذ شرب في المقهى ؟

ثلاث ؟ ربما . لعله لم يتعود الشرب . وإلا كيف تفسر تداعي هذا الرجل الفخم الضخم «الأكابر» على قدميها الحافيتين فيمسحهما بالقبل والدموع .

ولكن ، لماذا الدموع بالذات ؟

التداعي على قدميها والتهافت عليهما شفطاً وتقبيلاً قد تتفهمه على أنه ضعة وخنوع من رجل خلع قناع الفارس الهمام ، فإذا هو جبان وضيع متخاذل . ولكن كيف تفهم الدموع ؟ كيف تفسر البكاء ؟ ما هو المسوغ ؟

تنازعت لارا مشاعر الاحتقار ونشوة انتصار فتاة صغيرة على محارب متغطرس . نعم ، شعرت بنشوة الحاق الذل بالمعتدي . المحسوس المرئي للمعتدي المتكبر . وتنازعتها مشاعر الشفقة عليه شفقة أشبه ما تكون بالرثاء الأسود ، والعطف القاسي .

ترك قدميها ثم سعى نحو رأسها على أربعته . . والدموع في عينيه ، وعلى وجهه . فلم تصده إلا بحركة رفيقة تستهدف وضع كوابح هينة لاندفاعه الأهوج ، بل لتداعيه المخزي .

ثم استقبلته فاترة . كأنه يخاطب جسدها فيستعجم . جسدها أصم أخرس فاتر . شبه مستسلم . استسلام سلبي . كأنه

حردان . صحيح أن الحرد غير الغضب ، لكنه أقسى . هذا الحياد السلبي ، عدم الانحياز الجاف .

كان الحصن المنيع معنوياً هذه المرة . حصناً خفياً غير مرئي وخلفه تبدو أرض خصيبة جاهزة لاستقبال لمسات المطر الأولى ، أو محراث الحقول .

دفن جمال بك رأسه في صدرها . وجعل يكلف نفسه ما لا طاقة به . فمشقة اقتحام حصن منيع معنوي ، أكثر مشقة من اقتحام حصن مجسد محسوس بمليون مرة . أدرك أنه يغدق عليها عشقاً غزيراً ، وانها تقابله بحفنة مودة .

أما لارا ، فقد استسلمت تماماً ، لهذا الشعور الفاخر الغامض بالانتصار استطعمته بلذة لئيمة طاغية وتلمظت به بمتعة غادرة تفوح منها رائحة ضغينة غير مقصودة . كأنها زلة لسان . ضغينة لم ترغب فيها . لكنها هنا تتفتح وتزدهر مظلمة رعناء .

همد جمال بك بغتة فبدا وكأن عملاقاً اسطورياً خارقاً قد بدأ يتساقط بلا حول ولا طول . ولاّها ظهره . ثم خمد لا يحرك ساكناً ولا يومئ ولا يزول . كتلة صمت مجسمة ذات سعة وطول وارتفاع ولون . صمت عاجز أخرس . شلل سيلزمه بقية حياته كلها . بقية كل القصص الثانية والثالثة والرابعة في حياته إلى أن ينتهي عمره . كساح سيرافقه الى اللحد .

تأملت لارا ظهره المحدودب العاري في أسى عامر بالدهاء

غير المقصود . ورأت أثر فتورها يحز في نفسه .

انزلق من السرير فاتسعت عيناها . لاح لها انه يترجل على دفعات . مثل هرم يتداعى بتؤدة . ثم اتسعت عيناها أكثر واكتظتا بالذهول حين رأته ينثني ويلملم ثيابه ثم يلوذ بالحمام .

كل هذا الجاه والباه انكشف فجأة فاذا هو في حقيقة أمره مجرد سقط متاع .

خرج بعد دقائق مرتدياً ثيابه . كان قد عاد إلى حجمه الأصلي العادي : رجل عادي شأنه شأن أي رجل عادي في الخمسين من عمره . لم يكن مديد القامة ولا قصيرها بلا كرش ولا نحول ولا مشاعر ولا أحاسيس . ولا توجد في كيانه أي علامات فارقة . رجل متوسط الطول والعرض ومتوسط الحضور .

أشاح بوجهه عنها ، وتجنبتها نظراته . ظلت هي راقدة مكانها على السرير ، تحت الغطاء ، لا تومئ ولا تنبس . كتلة الصمت الصلد البارد تتفاقم وتكتظ في الغرفة .

فتح باب الغرفة . ثم تحول عن الباب وسار الى حال سبيله دون أن يصده .

مشى في الشوارع الجانبية هائماً لا يلوي على شيء . كالمخدر مشى . كان فتور المرأة التي يعشق عشقاً عنيفاً قد ملأ نفسه صدوفاً عن الدنيا وزهداً في متاعها .

مشى تقوده خطاه ولا يقودها . تحمله شوارع فتفضي به الى شوارع أخرى . تتخطفه دروب تسلمه إلى أزقة . وحين استعاد بصره بعد لأي . وجعل يرى الأشياء حوله . حانت منه التفاتة فرأى امرأة شقراء متبرجة . أدرك من فوره أنها بائعة هوى باهظة الثمن . حين بدأت تدنو منه بتردد ، لم ينصرف عنها . وإنما توقف جامداً في مكانه ، وكانت عيناه تستجيران بها . مالت نحوه وهمست في أذنه بعض الكلمات .

لم يعلق . لم يجد ما يقوله . لكن بائعة الهوى رأت الصرخة المستجيرة في عينيه . فرفعت يدها وأشارت إلى سيارة تاكسي . دفعته برفق نحو السيارة، فاستسلم لها دون جدال ولا سؤال ولا مفاصلة . لم يسألها عن السعر مع أنها قالت له إنها باهظة الثمن . لم يتخوف من مكيدة تجره إليها .

محترفة وسائح ، ينبغي أن يأخذ حذره . لكنه لم يأخذ أي شيء . كان فائضاً بخواء متخم ، لا يسعه أن يأخذ أي شيء ، فهو متخم بالخواء . لا يستطيع أن يأخذ حذره ، ولا أن يأخذ يدها في يده ، فبادرت هي ، حين استقلا سيارة التاكسي فأخذت يده بيدها ، ورفعتها لتقبل راحته قبلة حميمة حارة .

أعادت حرارة القبلة شيئاً من الدفء إلى كيان جمال بك الشاحب المحبط . وحين توقفت سيارة التاكسي بناء على أمرها . ابتسمت ابتسامة متعاطفة من غير شماتة وقالت له :

ـ أرجو ان تدفع للسائق .

كانت هذه طريقتها المهذبة في محاولة الاطلاع على كمية النقود التي يحملها في محفظته . ولما استل محفظته من جيب سترته الداخلية . لم يعرف أي مبلغ يدفع للسائق . فتح محفظته على اتساعها ومدها نحو بائعة الهوى بحركة رجل نوم مغناطيسياً . ابتسمت المرأة بأناقة . ودست إصبعين من أصابعها في محفظته فتناولت عدة قطع من الأوراق النقدية برشاقة . ثم أعادت له محفظته وقد أبرقت عيناها . فتحت باب السيارة وأشارت له بيدها أن انزل .

نزل عند أمرها بلا مناقشة ولا فضول ولا حذر ولا قلق ولا رغبة . قادته من يده إلى بناية في زقاق . رأى رجلاً عملاقاً يقف عند الركن . حيته بائعة الهوى فحياها ثم حياه . إلا أنه لم يرد التحية ولم يفتح فمه . تكلمت بائعة الهوى مع الرجل العملاق بلهجة آمرة مقتضبة . ثم اصطحبت جمال بك إلى البناية . فارتقيا درجاً ، اذ لم يكن في العمارة القديمة مصعد . وعندما جعل يلهث . وقفت أمام باب شقتها وقالت وهي تبتسم بمرح :

ـ تفضل وصلنا أخيراً .

وأومأت له نحو كنبة في الصالة الضيقة . فنفذ إملاءاتها من فوره . ومشى كالسائر في نومه ثم تهالك على الكنبة في صمت وما هي الا دقائق حتى قرع الرجل العملاق الباب ، ثم دخل

حاملاً زجاجة ويسكي وكيساً من الفواكه .

أعد العملاق الطاولة بينما دخلت بائعة الهوى إلى غرفتها . ثم عادت لابسة ثوب نوم مثيراً . فوضع العملاق كأسين إلى جانب زجاجة الويسكي . ثم دخل المطبخ وعاد يحمل وعاء ثلج .

ألقى نظرة نحو بائعة الهوى ، فأومأت له برأسها . تحول عنهما وخرج إلى حال سبيله .

ما إن أخذت بائعة الهوى تصب الويسكي في كأس جمال بك حتى ضحك رغماً عنه ، ثم باعد ما بين شفتيه لأول مرة وقال وهو يتناول الكأس من يدها ويرفعها :

ـ نخب هجوم مضاد خارق حارق . نخب انتقام كاسح ماسح للانتقام من لارا . لم تفهم بائعة الهوى شيئاً لكن أسارير وجهها تهللت ورفعت كأسها وقرعته بكأسه وقالت بالإنكليزية :

ـ تشيرز . .

فانتشى جمال بك ، وخلع حذاءه ثم استرخى في مقعده وقال بلهجة منتقم اتخذ ثأره .

ـ نخب النصر المؤزر !

وهكذا بالغ جمال بك في معاقرة الخمر وغالى في مداعبة بائعة الهوى .

***

عاد جمال بك، عند الفجر ، مترنحاً إلى الفندق . ولما وقف أمام باب غرفته كاد يفقد توازنه ، لكنه استند براحته إلى الجدار . أحياناً ، يقوم الإنسان بأفعال لا تفسير لها ولا تأويل ولا ذريعة منطقية ولا مبرر . وما فعله جمال بك قبل أن يقرع باب غرفته يندرج في هذ الخانة . إذ إنه انحنى دافعاً مؤخرته إلى الخلف ، وجعل يرمي نظره من ثقب الباب ، متلصصاً على لارا .

لعله كان يرغب في أن يرى إن كانت نائمة أم مستيقظة ربما . وما أدراك؟

رأى طرفاً من يدها وفيها طرف من ورقة . ماذا؟ هل تطالع لارا خانم قبل النوم ؟ لعلها تقرأ أوراقاً عن معالم باريس . وهي أوراق متوافرة في كل الفنادق . ولعلها مجرد منديل ورقي . هل يعقل أن تكون لارا قد شعرت بالذنب، فاستسلمت للبكاء وما هذا الشيء الأبيض الذي يشبه طرف ورقة سوى منديل ورقي تجفف به دموعها .

رقص قلبه طرباً لهذه الخاطرة . نعم ، لعلها تشعر بالذنب . لعلها أحست أن الفتور الذي واجهت به نيران عشقه ألحق بحبيبها أضراراً فادحة .

استوى منتصباً وطرق الباب . فإذا هو يصغي إلى صوت درج يفتح بسرعة ثم يغلق بحركة عصبية نزقة .

حين فتحت لارا الباب انتحلت دور امرأة استيقظت لتوها من نومها . ولاحظ جمال لهوله أن الغرفة مظلمة .

ولكنه على يقين من أن المصباح الجانبي بالقرب من مخدعهما كان مضاء حين سرب نظراته من ثقب الباب . ترنح قليلاً ، ثم مشى بخطوات واسعة غير متزنة نحو السرير ، وتهاوى عليه بقوة .

بادرت لارا فنزعت حذاءه . ثم حاولت أن تنتزع ثيابه رامية إلى إدخاله في منامة ، إلا أنها وجدت مشقة كبرى في زحزحته .

كان يرى الغرفة تدور به . تدور ، وتدور ، وتدور . استسلمت لارا لليأس فتخلت عن محاولتها نزع ملابسه ، مكتفية بنزع فردتي حذائه ، ثم عادت لترقد على طرفها من السرير . انقلب نحوها فتنشقت رائحة الخمر ، فظنت لوهلة أنه قضى كل هذا الوقت في حانة ما . يشرب كي يطفئ نيران غضبه . لكن ما إن انقلب واستقر على ظهره . حتى رصد أنفها رائحة عطر نسائي . لم تكن على يقين إن كان من النوع المبتذل أو الباذخ . لكنه عطر نسائي . لعب الفأر في عبها وأدركت بحاستها الانثوية انه قضى الليل مع امرأة أخرى .

يا إلهي في ليلة شهر عسلهما الأولى ، يخونها مع بائعة هوى ، لمجرد أنها لم تتجاوب معه بالطريقة التي أراد أن يمليها عليها !

غير معقول . غير معقول . دنت منه بأنفها وشممت شعره وعنقه وياقة قميصه . يا إلهي . . لا تصدق لا شك أنها تحلم . إنها

ليلة الدخلة . ذهب مع مومس . تاركاً عروسه في سرير بارد .
لا ، هذا كابوس وهمي لا يمكن أن يحدث على أرض الواقع .

عادت لارا تتشممه .

وإذا بالفتاة الخجولة التي قد تأكل القطة عشاءها دون أن تدافع عن نفسها ، كما يقول المثل ، قد تحولت إلى لبؤة .

ركلته بقدمها بقوة لا يعرف أحد ، ولن يعرف ، من أين واتتها . فإذا به ينقلب على طرفه الايمن ، ثم ينزلق عن السرير ويهوي إلى الارض . كانت ركلة جبارة فاجأت لارا نفسهابقوتها الخارقة . وحين حط جمال بك على الأرض دهمه شعور موجع بالذنب . فعلاً . هذا غيرمعقول . يعاشر بائعة هوى في ليلة الدخلة؟ بدأ التحقيق المطول من قبل امرأة خبيرة في شؤون الاستجواب وأساليبه . لا شك أنها خبرة فطرية تتمتع بها كل امرأة . لكنها تبقى كامنة حتى يثير زوجها شكوكها . فتبزغ كشمس ضارية انبثقت من وراء غيمتين راحلتين وشقت طريقها بشراسة لتسيطر على موقعها المترفع وتحرق الآخرين بألسنة قيظها الذي لا يحتمل وكانت تصرخ : تخونني ليلة الدخلة؟

وجعلت فعلاً ، تلسعه بنيران اسئلتها الدقيقة . وتعليقاتها السليطة . فكان يكرر كلمة : آسف ، أعتذر ، أنا غلطان . سامحيني . إلى أن تفاقم الأمر فتجاهلت لارا اعتذاراته وأسفه وفقدت السيطرة على نفسها ، فطاش لبها ، وغرب عقلها ،

وجعلت تنتحب بشدة . حتى تلك اللحظة ، كان جمال بك مذهولاً وقد أدركه إعياء الخمر ، فاكتفى بالحملقة فيها بذهول : معقول؟ هذه القطة الرقيقة الضعيفة تتحول إلى نمرة بين لحظة وأخرى ؟

أما حين أفلت الزمام تماماً وصفعته لارا بقوة على صلعته ، فقد بدأت موازين القوى تتغير . وهي لم تكتف بصفعه على صلعته ، وإنما بحثت عن شعره لتشده فلما لم تجد شعراً تناولت طرفي شاربه الكث وجعلت تحاول أن تنتزعه من مكانه .

ماذا ؟ صفعة على الصلعة ، ثم محاولة اقتلاع شاربه! لا . هذا كثير .

وهنا أكملت موازين القوى تغيرها . فتناهض جمال بك ، ولطم وجه لارا بظاهر يده ، تنافر دم من أنفها ومن طرف فمها . وسقطت عند الطرف الآخر للسرير . وعندما تأهب ليوجه لطمة أخرى أفلتت نظرة من نظراته باتجاه الأرض تحت درج المنضدة الجانبية مباشرة ، فإذا بها ترتطم بظروف رسائل فارغ .

في تلك اللحظة تذكر جمال بك ما رآه من ثقب الباب . فتحول عن لارا ، واندفع ليفتح درج المنضدة ، بل ليقتلعه اقتلاعاً . لم يكتف جمال بك بالنور المتساقط على غرفتهما من مصباح كهربائي في الخارج . فأضاء مصباح لارا الجانبي . وإذا بنظراته تضبط مجموعة رسائل . . متلبسة .

تناول كمشة منها وما ان جعل يقرأ عشوائياً حتى اكتشف أنها رسائل عشق وغرام متبادلة بينها وبين ابن الجيران ! !

* * *

عاد جمال بك ولارا في الطائرة المتجهة من باريس إلى عمان في اليوم الثاني لشهر عسلهما. شهر عسل؟ لقد تقوض منذ الليلة الاولى!

منذ مغادرة الفندق في باريس لم يتبادل جمال بك ولارا كلمة واحدة. وحين دخلا الطائرة التفتت لارا إليه، دنت منه وفي نفسها ان تعتذر له وتشرح الموقف، لكن جمال بك أعرض عنها بحركة حادة وأشاح بوجهه المتجهم، ثم مضى يتخذ مجلسه على مقعد شاغر بعيد. فأدركت لارا أن الأمور أكثر تعقيداً مما ظنت. وأن جمال بك يعمل على تصعيد الأزمة. وأنه لا يرغب في الجلوس إلى جانبها.

قامت لارا واتخذت مجلسها على مقعد يفصل بينه وبين مقعد جمال بك ممر من ممرات الطائرة.

اختلست إليه نظرة فلاحظت أنه منكمش في مجلسه. بدا واجماً مكفهراً غالبت ترددها فغلبته بعد مشقة استنزفت جل طاقتها. مالت نحوه وهمست:

ـ ألن تعطيني فرصة للحديث وشرح الـ . .

فقاطعها بصوت مظلم دون ان يلتفت إليها:

ـ لا داعي ، أريد الطلاق .

امتقع وجه لارا وارتج عليها فلم تهتد إلى كلمة تقولها . استرخت في مقعدها مستسلمة مأخوذة ، وأحست بأرض الطائرة تدور تحت قدميها . لم تتزحزح من مكانها .

أخذها الذهول كل مأخذ واستحوذ عليها حتى أنها لم تسترد انتباهها إلى نفسها إلا حين هبطت الطائرة في مطار عمان .

التفتت نحو جمال ، فإذ به يحمل سترته على ذراعه ويندفع نحو باب الطائرة قبل أن ينهض الركاب بعد . أدركت أنه يرغب في تفاديها . إنه مجروح من الداخل وينزف. ياللأحمق . يالصغر عقله !!!

لحقت به حين أمر عاملاً بحمل حقائبه على عربة ويمم صوب موظف الجمارك هتفت يائسة : جمال .

لكنه مضى متجاهلاً صيحتها ، ثم سعى إلى بوابة القادمين فاستقل سيارة أجرة حملته الى بيته القديم ، وقد ترك لارا وحيدة مهجورة على أرض المطار .

***

حين ضغط جمال بك على جرس بيته ، ترامى إلى مسامعه وقع أقدام. فتح الباب فإذا هو أمام زوجته وجهاً لوجه . رمقها بنظرة خاطفة مرتبكة ، ثم استرد نظرته، ونكس رأسه ، انثنى ليحمل حقيبته، وقال :

ـ مرحباً .

قالت زوجته بلهجة من غادر زوجها البيت قبل دقائق ثم عاد :

ـ الحمد لله على السلامة ! لماذا لم تتصل من هناك وتخبرنا بأنك ستعود اليوم ؟ هل جئت بسيارة أجرة ؟

بدا الفتور فاضحاً صارخاً في نبرة صوتها . سألته :

ـ طمئنني . . كيف حال ظهرك ؟ ماذا قال الطبيب هناك ؟ لم تنتظر جوابه ؟ تنحت ، ثم انقلبت على عقبيها ، وعادت الى غرفة الجلوس حيث كانت تطالع مقالة في مجلة نسائية أنيقة .

تناولت المجلة وتابعت القراءة .

أحس بكتلة الصمت الثقيل الشاسع الذي يفصل بينهما . فاكتظت نفسه بوحشة ساحقة .

سألته دون ان ترفع عينيها عن المجلة :

ـ لو اتصلت وقلت إنك ستصل اليوم . . . لأرسلت السائق والسيارة . لماذا لم تتصل ؟

سألت سؤالها هذا بنبرة من لا ينتظر جواباً وكان سؤالها الأخير . لم تسأله عن حال ظهره مرة أخرى . لم تتلهف لمعرفة رأي الأطباء هناك .

وقف أمامها وقد استحوذ عليه شعور جامح بالغيظ :

ـ ألا يهمك أن تعرفي إن كنت أحضرت هدايا أم لا ؟

لم تلتفت . ظلت نظراتها معلقة على صفحة المجلة . قلبت شفتها السفلى ثم رفعت ساقيها وضمتهما تحت عجيزتها ، وقالت إنها لم تتوقع هدايا ، فقد سافر من أجل العلاج لا من أجل التسوق . رفعت رأسها عن المجلة ، ورمقته بنظرة سريعة مجاملة ، ثم تصنعت ابتسامة على شفتيها ، ورفعت إصبعها إلى لسانها فبلته كي تقلب صفحة المجلة بيسر . وعادت تطالع .

رمقها جمال بك بنظرة حزينة لم تخل من دلالة رثاء للنفس : لقد انتهت قصة حياته قبل أن تنتهي حياته . لم يفلح في الشروع بصياغة قصة جديدة يستمتع بها فلا تنتهي فصولها وأحداثها إلا عندما تنتهي حياته ويهبط في لحده . وهذه زوجته نضبت . فقدت القدرة على تجديد حياته . إنها اشبه ما تكون بأخته . ها هي تجلس وتطالع مكتفية بنفسها . تسكن إلى نفسها ، متهدلة الروح ، مهلهلة الصدر ، وبطنها «الرخوية» أعظم من كرشه الصغير الذي لا يكاد يُرى .

سعى إلى غرفة نومهما محدودب الروح والظهر ، تاركاً حقيبته في غرفة الجلوس قرب زوجته . . ما الفرق بين حقيبته وزوجته ؟ مسح على شاربه ودخل غرفة نومهما بخطى وئيدة . ثم توقف كالمأخوذ عند سريرهما (يسمونه بالفصحى «مخدعاً» . . أي خدعة مبتذلة هذه ؟)

ومضت في باله صورة لارا . لا ، لم يعد في نفسه التي خالها خضراء ، قوة قابلة بتحمل أعباء ومسؤوليات وتبعات جديدة .

رمق جهاز الهاتف على المنضدة المجاورة للسرير بنظرة مترددة ، حدثته نفسه بالاتصال بها ، بمنحها فرصة جديدة . ماذا تعني رسائل مراهق إلى مراهقة . . ابنة الجيران؟ علاقة صبيانية بريئة تليق بالضحك لا بالغضب . دنا من الهاتف . رفع السماعة بيد قلقة غير ثابتة ، ثم أعادها الى مكانها .

وضع يديه على خاصرتيه وجعل يتلفت حوله ناثراً نظرات قلقة مستطلعة . كأنه يحاول أن يتذكر السبب الذي جعله يدخل غرفة نومهما ، ويقف عند مخدع الزوجية .

عنّ له ، فإذا به يمضي نحو الخزانة ، يفتحها ، يتناول ملابسه كلها ويحملها على ذراعيه ، ثم ييمم صوب ما كان يسمى بغرفة نوم الابن .

سرير الابن في مكانه . خزانة الابن لم تتزحزح . دخل جمال بك الحمام . اغتسل بمياه ساخنة ثم باردة فتسرب إلى أعماقه حس رفيع بالانتعاش . جفف جسده ، ودخل منامته ، وعاد إلى غرفة الابن السابقة المهجورة ، فاضطجع على السرير الشاغر . ونام لاول مرة في حياته في غرفة منفصلة عن غرفة زوجته المنهمكة في قراءة مجلة نسائية أنيقة .

لم يغمض له جفن . داخله شعور مرتبك مقلق بأن رسائل الحب الصبياني التي اكتشفها مع لارا لم تكن سوى ذريعة . حدثته نفسه بلسان مستريب :

ـ لعلك ندمت بعد عقد القران مباشرة . بل لعلك عضضت على أصابعك ندماً اثناء عقد القران . ربما تولاك شعور بأنك تورطت . أنك تواطأت على نفسك وورطتها . ولم يكن التراجع معقولاً . فتجلدت ، وكمنت في لا شعورك تبحث عن ذريعة لتمزيق الصفحة الأولى من قصتك الجديدة الثانية . ماذا لو كان هذا «التخمين» مصيباً ؟

وما أدراك؟ ربما كنت مرتاحاً مطمئناً (في لاوعيك) لاختتام قصة حياتك قبل أن تنتهي حياتك . ربما كانت حياتك مسرحية اسدل الستار عليها . . لا قصة . .

مسرحية من مشهد واحد طويل . من فصل واحد ضخم . وعندما أسدلت ستارة المسرح انتابتك نوبة رعب أفقدتك توازنك : ماذا أفعل بنفسي بعد ان انتهت المسرحية : ماذا سأكون بعد ان لعبت دوراً طويلاً طويلاً ، ادمنته ، في العرض المسرحي . مَنْ أنا الآن ، بعد ان انتهى الدور الذي لعبته ؟

ربما كان غيرك ، من أمثالك ، أكثر حصافة . ربما كان الممثلون الآخرون قد تنفسوا الصعداء حين انتهت المسرحية . فغادروا المسرح وقد رقصت قلوبهم طرباً : الآن فقط ، بات في

وسعنا ان نتمتع بحياة حرة . حياة لا تقيدها مواعيد عرض المسرحية اليومية . الآن فقط تحررنا من مسؤوليتنا أمام الجمهور . الآن ، بات بوسعنا ان نفتتح حياة حرة ، إجازة طويلة . لا يقلقنا بائع التذاكر ، ولا المخرج ، ولا حفظ الدور ، ولا رأي الآخرين بنا . لن نمثل بعد الآن . . إذن سنحيا : إما أن نلعب أدواراً تحكي عن الحياة ، أو نحيا الحياة مباشرة . دون دور . حياة بلا التزامات ولا طموحات . وبقايا فائض وقت نبعثره كما يحلو لنا .

قصة جديدة تدورحول التنبلة . حول تنبل يعيش الحياة بلا قيد . تنبل من التنابلة الذين كانوا على قيد الحياة حين ولدوا . ثم حطموا قيد الحياة ، فباتوا أحياء بلا قيد . وما أدراك؟ لعل التنابلة، وحدهم ، يحيون متحررين من قيد الحياة . أحياء ليسوا على قيد الحياة إذ لا قيد في حياتهم . ترى هل توجد علاقة بين كلمة التنبل وكلمة النبيل . أليس التنبل رجلاً نبيلاً غير مضطر إلى الإقدام على أفعال لا يرغب فيها ؟ التنبل ؟ لعله الإنسان الوحيد المتحرر من الضرورة. ما أدراك ؟ ربما كانت الحياة هي التي تقبل على التنبل ، بدلاً من أن يسعى هو في مناكبها ، في القيظ وفي الزحام .

نعم ، التنبل النبيل غير التنبل العادي الكسول. التنبل النبيل يتدلل على الدنيا فتهرع إليه وتلاحقه بالحاح عارضة عليه مفتاح مقاليدها . وكلما أعرض عنها ، ضاعفت من استسلامها له :

حياة المترف البطر . . حتى لو كان محدود الدخل . .

ابتسم جمال بك ابتسامة الرضا والزهو ، وقال بصوت خافت فيه رنة بهجة واعتداد :

ـ والله وصرت فيلسوفاً يا جمال !

انقلب على بطنه ليستسلم لنوم وادع ، فصك صوت زوجته مسامعه :

ـ جمال ؟ ماذا تفعل ؟ جمال . . هل تريد ان تتناول العشاء قبل أن تنام الخادمة؟ جمال . . أين أنت؟ جمال . . تعال!

* * *

ليلة عسل

عن الرجل الذي انتهت حياته قبل أن يموت

